مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

جَمَالِيَّاتُ النَّصِّ فِيْ أَقْوَالِ الإِمَامِ الحَسَنِ ﷺ وَخُطَبِهِ – دِرَاسَةً بَلَاغِيَّةً تَحْلِيلِيَّةً

جمانة إبراهيم داؤد [1]

١ جامعة طرطوس / كُلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة / قسم اللُّغة العربيَّة، سوريا؛

Joumanadaoud1973@gmail.com

دكتوراه في اللغة العربية / مدرس

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٣/١١/٢٩	٢٠٢٣/١٢/١١	٢٠٢٤/٣/٣١

DOI: 10.55568/t.v17i29.95-114

المجلــد (١٧) العــدد (٢٩)
رَمَضَان ١٤٤٥هـ-آذَار ٢٠٢٤م

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث:

يحاول هذا البحث تبيين السمات الجماليَّة للتشكيل البلاغيّ في أدب الإمام الحسن ﷺ، بعد الوقوف على مفهوم الجمال والنصّ في اللُّغة والاصطلاح، ثُمَّ يقف عند شخصيَّة الإمام الحسن ﷺ، وتركز الدراسة على الأقوال القصيرة الموجزة المعبِّرة، ثُمَّ الخطب التي قالها الإمام الحسن ﷺ في مناسبات مختلفة، وقد ركّز البحث على الفنون البلاغيَّة (البيان، والبديع، وعلم المعاني) التي أثرت نصوصه ﷺ وخلَّدتها عبر التاريخ، والتعرّف على أثرها الجماليّ، وذلك من خلال نماذج منتقاة من نصوص الإمام ﷺ.

وقد استعان البحث بالمنهج التحليليّ في تناول نصوص الإمام الحسن ﷺ؛ إذ يتيح هذا المنهج إمكانيَّة مقاربة النصوص على خطوات متسلسلة، تبدأ بإدراك النصِّ الشعريّ بوصفه خطوةً أولى لمعرفة المضمون المباشر والأولي في النصِّ، ثُمَّ تحليل هذا النصّ وتركيبه على وفق رؤية جماليَّة تعيد إنتاج النصّ بعد الوقوف على جماليَّاته المختلفة.

الكلمات المفتاحيَّة: جماليَّة، النصّ، دراسة بلاغيَّة، الإمام الحسن ﷺ.

Text Aestheticism in Proverbs and Sermons of Imam Al-Hassan(PBUH): Analytic Rhetorical Study

Jumana Ibrahim Dawood [1]

1 University of Tartous / College of Arts and Humanities / Depatment of Arabic ,Syria;

Joumanadaoud1973@gmail.com

PhD. in Arabic language/ Lecturer

Received: 29/11/2023 Accepted: 11/12/2023 Published: 31/3/2024

DOI: 10.55568/t.v17i29.95-114 Volume (**17**) Ramadan 1445 AH Issue (**29**) March 2024

Abstract:

The current research attempts to identify the aesthetic features of rhetorical formation in the literature of Imam Hassan (peace be upon him), after examining the concepts of aesthetic and text in language and terminology, then it studies the personality of Imam Hassan (peace be upon him). The study focuses on the short, concise and expressive speeches on various occasions. The research studies the rhetorical arts: eloquence, rhetoric and semantics that enrich his texts and commemorate them throughout history, and identifies their aesthetic impact, through selected examples from the texts of the Imam (peace be upon him).

The research employs an analytical approach in dealing with the texts of Imam Hassan (peace be upon him) allowing the texts to be decipherable in sequential steps. It starts from perceiving the poetic text as a first step to know the direct and primary content in the text to analyzing the text and its structure according to an aesthetic vision that reproduces the text after examining its various aesthetics.

Keywords: aesthetic, text, rhetorical study, Imam Hassan (peace be upon him).

المُقَدِّمة:

إنَّ الوقوف عند الإمام الحسن ﷺ وتتبع آثاره طريق إلى معرفته والإيمان به لأنَّ أئمَّة أهل البيت يشكِّلون الركيزة الأساسيَّة في العقيدة الإسلاميَّة ويجب على المسلمين معرفتهم المعرفة الحقيقية التي هي مفتاح النجاة والهدى فهم ورثة رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله وسلَّم تسليماً كثيراً وذُكر أنَّ الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قال "إنَّ الذي من الله عليه بمعرفة أهل بيتي فقد جمع الله له الخير كلَّه" فهم خلفاء الله في أرضه ومن أكبر نعم الله تعالى على الإنسان وجود الأئمَّة الأطهار المعصومين بين البشر يقودونهم إلى طريق الحقِّ والصواب وهدفهم لا يعارض أهداف الأنبياء من قبلهم فمهمَّتهم دعوة الناس إلى الصراط المستقيم وأن يكونوا قدوة ومرشدين ليس فقط للإنسان المسلم بل للبشريَّة جمعاء، ولهذا جاءت الإمامة لتكون الامتداد الطبيعي للنبوَّة وسيرة الإمام الحسن ﷺ تظهر من خلالها جهوده الإصلاحيَّة في الأخلاق والتربية والسياسة؛ فالإمام الحسن ﷺ هو الإمام الثاني من الأئمَّة الاثني عشر ﷺ وهو الخليفة من بعد أمير المؤمنين ﷺ وعليه وقعت مسؤوليَّة الإمامة وقد كان ذكره كثيراً في الكتب التاريخيَّة، ولكن تأتي خصوصيَّة هذا البحث في تسليط الضوء على أثره ﷺ.

إنَّ العمل الأدبيّ- بتعدّد اتجاهاته، وتباين أنماطه- كلٌّ لا يتجزَّأ، يستعصي على أيِّ محاولة لتقسيمه أو تفكيكه، فلا قيمة لمعنى مجرَّد بلا صياغة تبلوره، أو إيقاع يثريه ويخلِّده، أو صورة فنيَّة تضفي عليه حركة وحياة، ولا دور للُّغة لم توظَّف لأداء معنى أو نقل إحساس، من هنا سيكون نطاق بحثنا البلاغة بأفنانها الثلاثة (البيان والبديع وعلم المعاني) وذلك من خلال تسليط الضوء على أقوال الإمام الحسن ﷺ وخطبه، للوقوف على جماليَّات النصِّ والتعرُّف على مواطن الجمال في كلِّ شاهد، عبر الدراسة والتحليل.

أوَّلاً: في مفهوم الجمال والنَّصِّ وآليَّة الدراسة:

الجمال الحُسْن يكون في الفعل والخَلْق، وجَمَّله أي زَيَّنه، والجمال يقع على الصور والمعاني، ومنه الحديث: إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال، أي حَسَن الأفعال كامل الأوصاف[١]، ولا تخرج بقيَّة المعاجم اللُّغويَّة عن هذه المعنى، فالجمال فيها يدلُّ على الحسن والزينة والبهاء.

١ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب، ط٣ (بيروت - لبنان: دار صادر، ٢٠٠٤)، مادة (جمل).

أمَّا المعنى الاصطلاحيّ للجمال فإنَّه يتعدَّد بتعدُّد الآراء واختلاف النظريَّات التي بحثت هذا المفهوم، وعلَّة ذلك تعدُّد المرجعيَّات الفكريَّة التي قاربت (الجمال) من زوايا معرفيَّة مختلفة.

فقد جاء في المعجم الأدبيّ أنَّ الجمال هو ما يُثير فينا إحساساً بالانتظام والتناغم والكمال، وقد يكون ذلك في مشهد من مشاهد الطبيعة، أو في أثر فنِّيٍّ من صنع الإنسان، وإنَّنا لنعجز عن الإتيان بتحديد واضح لماهيَّة الجمال، لأنَّه إحساس داخليّ يتولّد فينا عند رؤية أثر تتلاقى فيه عناصر متعدِّدة ومتنوِّعة ومختلفة باختلاف الأذواق، ومعرفة الجمال ليست خاضعة للعقل ومعاييره، بل هي اكتناه انفعاليّ، وقد يتوصّل التحليل إلى إدراك العناصر التي تؤلِّف في نظرنا الجمال في أحد الآثار، ولكنَّنا نظلُّ عاجزين عن فهم الصلة الخفيَّة بين هذه العناصر، أي العامل الذي يولّد الإحساس بالجمال[٢].

ويُلخص التحديد السابق إشكاليَّة الجمال من حيث تعدُّده واختلافه، وتزداد هذه الإشكاليَّة تعقيداً عندما ننظر إلى المعايير الجماليَّة من زاوية اجتماعيَّة أو فرديَّة، إذ تختلف هذه المعايير تبعاً لاختلاف المجتمعات أو العصور؛ لأنَّ كلَّ حضارة محكومة بمنظومة ثقافيَّة لها نموذجها الجماليّ الخاصّ بها، كما أنَّ كلَّ فرد ينفرد بمعاييره الجماليَّة تبعاً لذوقه الجماليّ من جهة، وتبعاً لما يطرأ على مستواه الثقافيّ من تغيير من جهة أخرى.

اهتمَّ النُّقَّاد العرب بدراسة العناصر الجماليَّة في الأدب، ولا سيَّما في ميدان الشعر، وقد لخّص الدكتور **عزّ الدين إسماعيل** آراء النُّقَّاد القدامى في هذا المجال، منطلقاً في تحديد هذه الأسس من خلال مفهوم الصورة الأولى والصورة الثانية في العمل الفنِّيّ، "فكلُّ عمل فنِّيٍّ له سطح هو ما يُسمّى بالسطح الجماليّ، وهو المقصود بالصورة الأولى، ووراء هذا السطح شيء يُفهم أو يُحسّ، وهو المقصود بالصورة الثانية"[٣]. وبتعبير آخر فإنَّ الصورة الأولى هي ما يقابل الشكل، والصورة الثانية هي ما يُقابل المحتوى.

يرى الدكتور إسماعيل أنَّ الجمال عند العرب يرجع إلى الشكل أكثر ممَّا يرجع إلى المحتوى، ومن ثُمَّ كثر عندهم النقد القائم على الأساس الجماليّ الصرف، أي الأساس الذي يهتمُّ بجمال

٢ عبد النور، جبور. المعجم الأدبي، ط٢ (بيروت لبنان: دار العلم للملايين، ١٩٨٤)، ٨٥.
٣ إسماعيل، عز الدين. الأسس الجمالية في النقد العربي (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٢)، ١٤٥.

الصورة الأولى، وقد توزّع اهتمامهم بالعناصر الجماليَّة لهذه الصورة بين الإيقاع والعلاقات، فعلى مستوى الإيقاع حاول النُّقَّاد العرب تبيّن جماليَّاته عبر دراسة عناصر الجمال الصوتيّ للألفاظ وتوازنها (السجع، الترصيع، المقابلة...)، وعلى مستوى العلاقات درس النُّقَّاد العرب علاقات الألفاظ ببعضها ضمن التركيب اللُّغويّ، وعلاقات هذه الألفاظ بالمعاني دلاليًّا، فخرجوا بنظريَّات جماليَّة مهمَّة كنظريَّة النظم وعمود الشعر[٤].

ولا نعدم اهتمام النُّقَّاد العرب بالصورة الثانية (المحتوى) في سياق البحث عن الجمال، وإن كان اهتمامهم ذاك أقلَّ من اهتمامهم بجمال الشكل الأدبيّ، ويحدّد الدكتور إسماعيل الأسس الجماليَّة المتَّصلة بالصورة الثانية على النحو الآتي[٥]:

أساس المنفعة والتعليم: ويُقصد بهذا الأساس القيم التي تحث على الشجاعة وإثارة النخوة والكرم، أو التي تفيد في تربية الأبناء وتأديبهم، فيكون الحكم الجماليّ عند النُّقَّاد متَّصلاً بما يشفُّ عنه الشعر من منفعة وتعليم.

الأساس الأخلاقيّ: وهو محور الجدل النقديّ حول قضية (الكذب والصدق) في الشعر العربيّ، إذ نجد بين النُّقَّاد مَن يستحسن الكذب في الشعر بوصفه صدقاً فنيًّا، فيما يصرُّ بعضهم الآخر على ضرورة الصدق وعدم المبالغة والمغالاة، وذلك من منطلق دينيّ بحت.

الأساس التاريخيّ: وهو محور الجدل النقديّ حول قضية (القدماء والمحدثين) من الشعراء، ونلحظ في هذا الأساس ميل النُّقَّاد إلى تغليب جماليَّة الشعر القديم على المحدث، بوصفه نموذجاً أعلى للجمال، فيما ضرب بعضهم صفحاً عن القدم في الشعر وقالوا إنَّ الفضل في الشعر لا يخضع لزمان قوله.

الأساس الاجتماعيّ: ويرتبط هذا الأساس بدرجات مَن يُوجَّه إليهم الشعر، كما يرتبط بالمكانة الاجتماعيَّة لشخصيَّة قائله، وبذلك يكون الجمال الشعريّ محكوماً بمواضعات خارجيَّة ترجع إلى المجتمع ومعاييره.

٤ إسماعيل، ١٨٧_ ٢٠٨.
٥ إسماعيل، ١٤٩_ ١٧٧.

الأساس النفسيّ: ويرتبط هذا الأساس بالإثارات الحسِّيَّة والانفعاليَّة لمتلقِّي الشعر، ويصوّر هذا الأساس علاقة العمل الأدبيّ بالذات القارئة، بما تملكه هذه الذات من استعداد نفسيّ لقبول جمال شعريّ ورفض آخر، تبعاً للحالة الشعوريَّة التي يثيرها الشعر فيها.

سار النُّقَّاد والأدباء العرب في العصر الحديث على نهج القدماء في بعض مراجعاتهم للجمال، فكانت آراء بعضهم انطباعيَّة ذوقيَّة تستلهم من التراث قيم الجمال ومحدَّداته، فيما تجاوز بعضهم الآخر هذا التراث انطلاقاً من اطِّلاعهم على أهمِّ إنجازات الفلسفة الغربيَّة في علم الجمال.

إنَّ اعتماد معايير ثابتة وأحكام مطلقة ووظائف محدَّدة للجمال يبدو عصِّيًّا على البحث، وذلك في ضوء تعدّد المعطيات النظريَّة للجمال، وقد أشار الدكتور شاكر عبد الحميد إلى تنوُّع هذه المعايير بين الذوق، والمتعة، والتخيّل، والتقمُّص، والمسافة النفسيَّة، والألفة والشخصيَّة والثقافة، والخبرة والمعرفة وغيرها[٦]، ولكنَّنا سنحاول بناء هذه المعايير والأحكام والوظائف بالإفادة من كلِّ ما سبق، وذلك بعد ربط الجمال بالنَّصِّ الأدبيّ، ولا بدَّ لنا قبل ذلك من تحديد مفهوم النصِّ، وصولاً إلى اقتراح آليَّة ديناميكيَّة لتحليل النصِّ جماليًّا.

لم يعرف العرب مفهوم النصِّ بالمعنى الاصطلاحيّ المستعمل في الدراسات النقديَّة الحديثة، فقد جاء في لسان العرب جملة من المعاني اللُّغويَّة التي تقارب هذه اللَّفظة معجميًّا، ومن أهمِّ هذه المعاني[٧]:

- النَّصُّ: رفْعُك الشيء. نَصَّ الحديث يَنُصُّه نصًّا: رفَعَه. وكلُّ ما أُظْهِرَ، فقد نُصَّ. وقال عمرو بن دينار: ما رأَيت رجلاً أَنَصَّ للحديث من الزُّهْري أَي أَرْفَعَ له وأَسْنَدَ.
- النَّصُّ والنَّصِيصُ: السير الشديد والحثُّ، ولهذا قيل: نَصَصْت الشيء رفعته، ومنه مِنَصَّة العروس. وأَصل النَّصِّ أَقصى الشيء وغايتُه، ثُمَّ سُمِّيَ به ضربٌ من السير سريع.
- ابن الأَعرابيّ: النَّصُّ الإِسْنادُ إِلى الرئيس الأَكبر، والنَّصُّ التوْقِيفُ، والنَّصُّ التعيين على شيءٍ ما، ونصُّ الأَمرِ شدَّتُه.

٦ عبد الحميد، شاكر. "التفضيل الجمالي – دراسة في سيكولوجية التذوق الفني،" سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٦٧ ٢٩_ ٥٩: (٢٠٠١).
٧ ابن منظور، لسان العرب، مادة نصص.

ويقترب الأصل اللاتينيّ لكلمة (نص) من الدلالة الحديثة المتداولة في الدراسات النقديَّة، فكلمة نص Texte مشتقَّة من Textus بمعنى النسج، ويوحي هذا المعنى بالجهد والقصد، كما يوحي بالاكتمال والاستواء، وبذلك فإنَّ دلالة هذه الكلمة تؤدِّي معنى بلوغ الغاية والاكتمال في الصنع[٨].

وانطلاقاً من هذا المعنى يتحدَّد مفهوم النصِّ بوصفه نسيجاً يتألَّف من كلمات وحروف، ولا يكون النصُّ نسيجاً إلَّا بالكتابة، فالكتابة هي التي تمنحه شكله الظاهريّ، وهذا التحديد يتقاطع إلى حدٍّ ما مع رؤية بول ريكور للنصِّ، إذ يقول: لنطلق كلمة نصّ على كلِّ خطاب تمَّ تثبيته بواسطة الكتابة، وهذا التثبيت أمرٌ مؤسِّس للنصِّ ومقوّم له، مع الانتباه إلى أنَّ الكتابة تستدعي عمل القراءة طبقاً لعلاقة تسمح لنا بإدراج مفهوم التأويل[٩].

وقد تطوَّرت دلالة النصِّ في المراجعات النقديَّة الحديثة، لتشير –إضافة إلى الكتابة– إلى الملفوظيَّة الحاملة للدلالة، وقد جاء في المعجم الموسوعيّ لعلوم اللُّغة لتودوروف ودكرو أنَّ النَّصَّ سلسلة ملفوظات لسانيَّة تتركَّب لتكون مجموعاً، هو النَّصُّ الذي يتَّصف بخصائص صوتيَّة ونحويَّة وتركيبيَّة، ممَّا يجعله دالًّا على وحدات نصِّيَّة تتميز بوجود علاقات يربط فيما بينها شرط انطوائها على مستوى دلاليّ واضح[١٠].

وقد جمعت معاجم المصطلحات العربيَّة بين المعنى التراثيّ العربي والمعنى النقديّ الغربيّ، فجاء في المعجم الأدبيّ معنيان للنَّصِّ: "

١- كلام لا يحتمل إلَّا معنى واحداً .

٢- (توسّعاً) كلام مكتوب أو مطبوع"[١١].

كما جاء في معجم المصطلحات الأدبيَّة المعاصرة مجموعة من التعريفات التي تحدِّد النَّصَّ وفق مرجعيَّات معرفيَّة مختلفة، فهو مصطلح يحلُّ محلَّ (العمل الأدبيّ) بوصفه أثراً للكتابة، وهو لا يُفكِّر فيه إلَّا من خلال أدبيَّته وفضائه، والنَّصُّ المحدَّد عند جماعة (تيل كيل) قوَّة حيَّة، ونظريَّة شكليَّة للُّغة، أمَّا النَّصُّ التامُّ فهو نصٌّ انتُهي من كتابته، وقابل لعضويَّة ما[١٢].

٨ شرشار، عبد القادر. تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٦)، ١٧_ ١٨.
٩ ريكو، بول. "النص والتأويل،" ترجمة. منصف عبدالحق، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد٣. ٣٧ : (١٩٨٨).
١٠ الأحمد، نهلة. "ما هو النص،" مجلة المعرفة، العدد ٤٥١ ٩١: (٢٠٠١)..
١١ عبد النور، المعجم الأدبي، ٢٨٢.
١٢ علوش، سعيد. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط١ (بيروت لبنان: الدار البيضاء، ١٩٨٥)، ٢١٣.

يستند الاستعمال العربي لمصطلح النَّصِّ في العصر الحديث إلى التحديدات النقديَّة الغربيَّة، وقد تمَّت مقاربة هذا المصطلح من زوايا متعدِّدة في الدراسات الغربيَّة والعربيَّة الحديثة على حدٍّ سواء.

يمكن لعلم النَّصِّ عند ممارسة تحليل النصوص الأدبيَّة الإفادة من جميع المنجزات التي حقَّقتها الأسلوبيَّة والبلاغة والشعريَّة الحديثة، فضلًا على المقولات التنظيميَّة النَّصِّيَّة، بشكل يستوعب الخواصَّ الجماليَّة للأجناس الأدبيَّة المتمثِّلة في الأبنية العليا، ويستجيب للمتغيرات الإبداعيَّة في أبنية النصوص الكبرى عن طريق اكتشاف النماذج الديناميكيَّة والخصائص المميَّزة للنُّصوص[١٣].

وقد طبّق الباحث **محمَّد تحريشي** في كتابه (أدوات النَّصِّ) بعض المنطلقات النظريَّة في تحديد جماليَّات النصِّ التراثيّ الجزائيّ، فانطلق من البنية الثقافيَّة المكوّنة لهذا النَّصّ، ثُمَّ وقف على البنية اللُّغويَّة لنصٍّ نموذجيٍّ، مميِّزاً بين الفعليَّة والبنية الإسميَّة، قبل أن يدلف إلى بنية النَّصِّ الدلاليَّة، بمستوياتها الصوتيَّة واللُّغويَّة والأسلوبيَّة[١٤]، نلحظ في هذا التطبيق الإجرائي التركيز على اللُّغة بوصفها حاملاً دلاليًّا وأسلوبيًّا للنَّصِّ.

سيحاول البحث مقاربة جماليَّات النصِّ عند الإمام الحسن ﷺ انطلاقاً من معايير محدَّدة تكشف عمقه الجماليّ، وتتوزَّع هذه المعايير على مستويات ثلاثة: مستوى التشكيل البيانيّ، ومستوى تشكيل علم المعاني، ومستوى التشكيل البديعيّ. ونحسب أنَّ هذه المستويات كفيلة بالكشف عن المحاولات الجماليَّة للنَّصِّ، ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنَّ هذه المستويات متداخلة في نصوص الإمام الحسن ﷺ.

ويبقى لنا أن نسوق تعريفاً موجزاً بالإمام الحسن ﷺ، قبل الولوج إلى عوالم نصوصه وتحليلها جماليًّا وبلاغيًّا.

ثانياً: شخصيَّة الإمام الحسن ﷺ

هو أمير المؤمنين الخليفة الخامس الحسن بن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطَّلب ابن هاشم بن عبد مَناف، الإمام السَّيِّد سبط رسول الله ﷺ وسيِّد شباب أهل الجنَّة أبو محمَّد القرشيّ

١٣ علوش، ٢٥٠.

١٤ تحريشي، محمد. أدوات النص (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠)، ١٠_ ٣٢.

الهاشميّ المدنيّ الشهيد، وأمّه سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء بنت رسول الله ويكنَّى أبا مُحَمَّد على الرغم من أن لم يعقب ولداً بهذا الاسم [١٥]

ولد الحسن بن علي ﷺ في النصف من رمضان من العام الثالث للهجرة، وهو أصحُّ الأقوال في مولده، وحين ولد حنَّكه رسول الله بريقه، ثُمَّ عقَّ عنه جدُّه بكبش وضحَّى جدّه كمرسوم من مراسيم الاحتفال به بأضحية فرحاً فيه [١٦]

لما ولد الحسن جاء الرسول الكريم فقال "أروني ابني ما سمَّيتموه"، فقال الإمام عليّ ﷺ حرب فقال "بل هو الحسن"، وكان أبوه سمَّاه حرباً لأنَّه كان يحبُّ الحرب وهذا جرياً على عادة العرب في أن يسمُّوا أولادهم لأعدائهم فيختاروا لهم الأسماء التي تحمل معنى الشدَّة والصلابة [١٧]

لكنَّ النبيّ ﷺ غير هذا المفهوم وطلب من المسلمين أن يختاروا لأولادهم الأسماء الحسنة التي تحمل معنى التفاؤل والرحمة، وكان يغير أسماء أصحابه التي لا تحمل هذا المعنى إلى أسماء أخرى.

للحسن ﷺ ألقاب كثيرة منها التقيّ، الطيِّب، الزكيّ، الوليّ، السبط، أمير المؤمنين وأشهرها السبط أمَّا لقب السَّيِّد فقد استحقَّه بناءً على حديث جدِّه النبيّ "إنَّ ابني هذا سيِّد وعسى الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين

أمَّا أمير المؤمنين فقد استحقَّه، لأنَّه تولَّى الخلافة بعد استشهاد أبيه ومكث خليفة للمسلمين فترة حتى تنازل عنها راضياً طائعاً حقناً لدماء المسلمين [١٨]

كان الحسن هو وأخوه الحسين ﷺ حبيبَي النبيّ ﷺ وقد وردت في ذلك الكثير من الآثار منها ما قاله أسامة بن زيد :" كان النبيّ ﷺ يأخذني والحسن ويقول اللَّهمَّ إنِّي أحبّهما فأحبَّهما "[١٩]

اختلف الرواة في تحديد السنة التي توفِّي فيها الحسن فمنهم من يرى أنَّه تُوفِّي في سنة الخمسين من الهجرة النبويَّة الشريفة أو التاسعة والأربعين أو الحادية والخمسين [٢٠]

---

١٥ الفرخ، أحمد . الإمامان الحسن والحسين (مصر: المكتبة المحمودية، ٢٠٠٥)، ٥.
١٦ المفيد، محمد بن محمد .الإرشاد (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٩٦٢)، ٦٥.
١٧ آيت اللهي، سيد مهدي. الإمام الحسن بن علي (ﷺ (قم: مؤسسة أنصاريان، د.ت. ٤.
١٨ سراج، جبر.(مناقب الإمامين الحسن والحسين (القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت. ٢٥.
١٩ الترمذي، أبي عيسى. الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، تحقيق. إبراهيم عوض (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٧٥)، ٣٢٢.
٢٠ عبد البر، أبو عمر يوسف. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق. علي محمد البجاوي (مصر: مكتبة النهضة، د.ت.)، ١١٥.

ثالثاً: دراسة أقواله القصيرة:

كان الإمام الحسن ﷺ يتَّصف بفصاحة لسانه وبلاغته في الأقوال القصيرة والمأثورة التي تتجسَّد من القرآن الكريم، ومن جدِّه الرسول عليه الصلاة والسلام، وأبيه عليّ بن أبي طالب ﷺ، وشملت هذه الأقوال العديد من المواعظ، وكذلك الأمر في خطبه أيضاً، ويمكننا أن نبيِّن هذه الفصاحة وتلك البلاغة من خلال الوقوف على نماذج من أقواله وخطبه.

تزخر أقوال الإمام ﷺ بالحكم والمواعظ التي تأتي على حوامل بلاغيَّة جماليَّة ترقى بمستوى الكلام إلى الإفهام والتأثير، ومن ذلك قوله ﷺ: **"المزاح يأكل الهيبة، وقد أكثر من الهيبة الصامت"** [٢١].

يستعين الإمام ﷺ بالاستعارة البلاغيَّة للتعبير عن فكرة تُعْلِي من شأن الصمت في موضعه، وتذمُّ المزاح الدائم في غير موضعه، وتبدو (الهيبة) في هذا القول بؤرة دلاليَّة تنقص وتزيد بحسب الموقف، فقد عبّر الإمام ﷺ عن نقص الهيبة من خلال صورة استعاريَّة تنهض على تجسيد المزاح، ويبدو ذلك التجسيم الاستعاريّ جليًّا في القرينة الدالَّة عليه (يأكل)، ومن الملحوظ اشتمال فعل الأكل على الدلالة الاستمراريَّة لأنَّ الإمام اختار له صيغة المضارع، وكأنَّه يشير إلى استمرار نقص الهيبة باستمرار المزاح، وممَّا يزيد من جماليَّة هذه الاستعارة، ويُعمّق من أثرها المعنويّ لدى السامع أو القارئ، ذلك الانتقال من حيِّز التجريد الذهنيّ في لفظة (الهيبة) إلى حيِّز الملموس الحسِّيّ عندما جعلها شيئاً (يؤكل) قابلاً للنقصان، وهكذا يتجلَّى المعنى المراد في الذهن على هيأة صورة حسِّيَّة ظاهرة تحيل على صورة معنويَّة مضمرة، مصداقاً لما جاء في الأثر من أنَّ الحسِّيَّات معابرُ إلى العقليَّات.

وتأتي الجملة اللاحقة لتؤكِّد الحكم المراد من الجملة الأولى بطريقة أخرى، إذ ينتقل الإمام من تصوير نقص الهيبة بالمزاح إلى التعبير عن وسيلة زيادتها (الصمت)، وذلك عبر جملة خبريَّة من النوع الطلبيّ المشتمل على أداة التوكيد (قد) التي تسبق الفعل (أكثر)، مبيّناً أنَّ الصمت في موضعه يزيد من هيبة المرء، وعلى الرغم من أنَّ مضمون الجملة الخبريَّة لا يحتمل تردّداً أو إنكاراً، ولكن الإمام ﷺ اختار له التوكيد لأسباب فنِّيَّة ودلاليَّة، فقد يؤكَّد الخبر شَرَفَ الحكم وتقويته، مع أنَّه ليس فيه تردّد ولا إنكار.

٢١ المجلسي، محمد باقر بحار الأنوار . بيروت لبنان: مؤسسة الوفاء، د.ت.، ج٧٥/ ١١٣.

وبذلك يجمع الإمام ﷺ بين التخييل الاستعاريّ والخبر الطلبيّ على صعيد واحد يعبِّر به عن نقص الهيبة بالمزاح، وزيادتها بالصمت، وهذا التنوّع الأسلوبيّ في بناء الكلام يرقى به إلى مستوى من التأثير الجماليّ المقترن بحسن استثمار الوظائف الدلاليَّة للُّغة في إيصال المعنى المراد.

ومن شواهد بلاغة الأقوال القصيرة عند الإمام ﷺ قوله: **"النعمة محنة، فإن شكرت كانت نعمة، وإن كفرت صارت نقمة"** [٢٢].

يبدأ الإمام ﷺ كلامه بجملة إسميَّة خبريَّة تقريريَّة من النوع الابتدائيّ (النعمة محنة)، وقد أدّى الاقتصاد اللُّغويّ دوراً بلاغيًّا في إيجاز الحكم المراد من هذه الجملة، ذلك أنَّ النعمة امتحانٌ للشخص المنعَم عليه، كما أدّى نوع الجملة (إسميَّة)، ونوع الخبر (ابتدائيّ) دوراً دلاليًّا مزدوجاً: الأوَّل ثبوت الدلالة تبعاً للإسميَّة في ركني الإسناد، والثاني عدم حاجة هذه الدلالة للتأكيد تبعاً لبداهة الحكم الذي يتشكّل من ركني الإسناد، وقد يخلو الخبر من المؤكِّدات رغم إنكار المُخاطَب له لعدم الاعتداد بإنكاره.

وهكذا تأتي هذه الحكمة واضحة جليَّة، من دون حاجة إلى التوكيد، كما جاءت مقتصرة على ركني الإسناد من دون تقييد، وقد أكسبها هذا الإيجاز ثبات الحضور في الذهن، واستقرار المعاني لدى السامع، استناداً إلى القاعدة الجماليَّة التي تقول (البلاغة في الإيجاز)، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ اختيار هذا الضرب من الخبر البلاغيّ الابتدائيّ قد جاء مقصوداً من الإمام ﷺ؛ لأسباب تتَّصل بتقديره العالي للعلاقة بين المقال والمقام، فهذا الضرب لا يحتاج إلى توكيد، ويكون طول الجملة وقصرها على قَدْر الحاجة عند المخاطَب تبعاً لتصوّر المتكلِّم.

وبعد هذا الإجمال البلاغيّ في ذكر الحكم، يُفصّل الإمام ﷺ في تداعيات النعمة التي يُمتحن بها الإنسان، فإن شكَرَ ربَّه عليها استمرّت نعمة، وإن كفر تحوّلت إلى نقمة، ويمكننا أن نلحظ هنا اعتماد الإمام ﷺ أسلوب التوازي التركيبيّ بين الجمل الشرطيَّة، مع اختلاف النتيجة تبعاً لاختلاف السبب، فجملة الشرط في الحالتين (إن شكرتَ، إن كفرتَ) توضّح موقف الإنسان من النعمة، أمَّا الجواب (كانت نعمة، صارت نقمة) فتوضّح نتيجة هذا الموقف، وقد استعمل الإمام ﷺ الفعل (كانت) للدلالة على ثبات النعمة في حال الشكر،

٢٢ المجلسي، ج٧٥/ ١١٣.

فيما استعمل الفعل (صارت) للدلالة على تحوّلها إلى نقمة في حال الكفر، وهذا التباين في استعمال الأفعال يخدم الغرض من الكلام، كما أنَّ الجناس غير التامِّ بين لفظتي (نعمة، نقمة) يبيّن الفرق الإيقاعيّ والدلاليّ بين اللَّفظتين، فالتشاكل الإيقاعيّ بينهما مخترقٌ بتغيّر حرف واحد بينهما، ممَّا يستدعي الانتباه إلى التخالف الدلاليّ بينهما أيضاً.

ويأتي حديث الإمام عن (النعمة) في موضع آخر من أقواله القصيرة، إذ يقول: "**تُجهل النعم ما أقامت فإذا ولّت عُرفت**" [٢٣].

يعرض الإمام ﷺ رؤيته لحال البشر مع النعم بكلام موجز يستعين فيه بفاعليَّة الطباق في إبراز غفلة الإنسان عن النعم مدَّة إقامتها عنده، فإذا ولّت عنه عرف قيمتها، وينبئ السياق التركيبيّ عن هذه الفكرة من خلال الأفعال التي تقع على (النعم)، فيحدث الطباق بين الفعلين (تجهل، عرفت)، والفعلين (أقامت، ولَّتْ)؛ ليكون هذا الطباق وسيلة للتحذير والنصح والإرشاد من خلال الأثر النفسيّ الذي يُحدثه الجمع بين المتنافرين في السامع أو القارئ، وما يستتبع ذلك من نشاط عقليّ يبيّن حدود الفرق بين هذه الأضداد، وهكذا كان الطباق حاملاً بديعيًّا للمعنى، يضفي على القول مسحة الجمال، ويفعّل نشاط المتلقّي في تبيان المراد منه.

وممَّا يرسِّخ الفهم الجماليّ للمعنى المراد في القول السابق، اعتماد الإمام ﷺ على الاستعارة في مقاربة النعم، فيشبهها بزائر عابر، يقيم حيناً ثُمَّ يرحل، وبذلك فإنَّنا نجهل قيمة هذا الزائر وهو عندنا، ثُمَّ نفتقده ونشعر بقيمته عند رحيله، إذ يفعّل هذا التشكيل الاستعاريّ نشاطاً تخييليًّا يتمثّل فيه السامع أو القارئ حركة (النعم) بين الإقامة والرحيل على نحو محسوس، فيحدث الفهم الجماليّ لمضمون الكلام بعد ربط هذه الاستعارة بالطباق الذي تشتمل عليه، كما يحدث الإدراك الواعي لغاية هذا الكلام الذي ينزع إلى تبيان قيمة النعم التي لا تُعرف إلَّا بزوالها.

ونقف أخيراً عند قول قصير للإمام ﷺ، يتحدَّث فيه عن الفقر وأحواله، يقول: "**من قلّ ذلّ، وخير الغنى القنوع، وشرّ الفقر الخضوع**" [٢٤].

٢٣ المجلسي، ج٧٥/ ١١٥.
٢٤ المجلسي، ج٧٥/ ١١٣.

يربط الإمام ﷺ بين القلّة والذلّ عبر تركيب نحويّ مكثّف قائم على الجناس بين لفظتي (قلّ، ذلّ)، ليحقّق تماثلاً صوتيًّا ينهض بمهمَّة جماليَّة ذات وظيفتين: وظيفة نفسيَّة تمثّلت بالأثر الموسيقيّ الذي تولَّد من هذا الجناس، ووظيفة معنويَّة تتَّضح في العلاقة الوشيجة بين الفقر والذلّ.

ثُـمَّ يعمـد الإمـام ﷺ إلى ربـط المعنـى المتشـكّل مـن الجملـة الأولى بمعـانٍ أخـرى عـلى سـبيل الموعظـة الحسـنة التـي لا تخلـو مـن حكمـة، مسـتعملًا أسـلوب المقابلـة الطباقيَّـة عـلى سـبيل إيضـاح المـراد، وذلـك مـن خـلال فاعليَّـة التضـادّ في الإحالـة عـلى المعنـى، فالضـدّ يُظهـر حسـنه الضـدّ، واجتـماع النقيضـين في الـكلام كفيـل بمقاربـة القـارئ لهـذا الـكلام مـن منظـور تفاضـليّ لطـرفي النقيـض، فيميـل إلى مـا يسـتحق الميـل لـه، وينفـر مـن الآخـر. وهـذا مـا نـراه في الألفـاظ المتقابلـة (خـير الغنـى، شرّ الفقـر)، إذ تجتمـع المعـاني في كلِّ طـرف لتحيـل عـلى دلالتين متقابلتـين: أولاهمـا أنَّ القناعـة خـير الغنـى، والثانيـة أنَّ الخضـوع شرّ الفقـر، وبذلـك يغـدو المعنـى الـكلِّيّ محفوفـاً بالجـمال البديعـيّ القائـم عـلى إيقـاع المقابلـة المتـوازي تركيبيًّـا، والمتقاطـع دلاليًّـا، إذ ينبـع الإيقـاع عـن حركـة المعـاني الكامنـة في النفـس، والمتفاعلـة مـع الحركـة التعبيريَّـة، فتكسـبها نمـوًّا حيًّـا يسـري مـن خـلال نظـام العلاقـات اللُّغويَّـة السِّـياقيَّة، والعلاقـات الدلاليَّـة الإيحائيَّـة.

ويـأتي السـجع بـين لفظتـي (القنـوع، الخضـوع) بوصفـه تابعـاً للمعنـى، مـن غـير تكلُّـف، فيـؤدِّي وظيفتـه الإيقاعيَّـة عـلى المسـتوى الصـوتيّ المكـرَّر الـذي يرسّـخ المعنـى في الذهـن، ليغـدو اسـتحضاره قريـب التنـاول، وحفظـه سـهلاً عـلى سـامعه أو قارئـه، وهـذا مـا يتناسـب مـع غايـة الحكمـة. وبذلـك يسـهم التناسـب الجـماليّ في هـذا القـول، عـلى المسـتويات الصوتيَّـة والتركيبيَّـة والدلاليَّـة، في ترسـيخ معنـى الحكمـة، ورفدهـا بأسـباب التأثـير والفاعليَّـة.

رابعاً: دراسة خطب الإمام الحسن ﷺ:

لقـد كان الإمـام الحسـن ﷺ مـن أبـرع الخطبـاء بعـد أبيـه وأبلغهـم، عمـل الإمـام الحسـن المجتبى ﷺ بـكلِّ جهـد إلى إبـراز ذلـك وهـذا مـا ظهـر مـن خـلال خُطَبِـه ورسـائله التـي ناظـر بهـا أعـداءه أو ردَّ عليهـم بـما أفحمهـم وأبـان صِغَرَهـم أمـام عظمتـه وفسـاد منهجهـم بمقابـل منهـج الحسـن

[٢٥]عليه السلام، لـذا آثـرت اسـتنطاق لغتـه لتبـيّن شـخصيّته مـن خـلال لغـة التَّضـادّ التـي أفـاض النُّقَّـاد المحدثـون بالـكلام عنهـا وقصـدوا بهـا: تأصيـل اسـتعمال أسـاليب التضـادّ مـن طبـاق ومقابلـة ومفارقـة والنظـر إليهـا نظـرة أكثـر شـموليَّة وعمقـاً وإعارتهـا اهتمامـاً أبلـغ، فبحثـوا في بيـان آثارهـا العميقـة في بنيـة النَّـصِّ، فلـم تكـن عندهـم حليـة وتزويقـاً، بـل كانـت أساسًـا في بنـاء الكثـير مـن النصـوص التـي أراد مبدعوهـا التعبـير عـن مشـاعرهم الجياشـة ولاسـيَّما في رثـاء الأحبَّـة، أو رثـاء المـدن أو عنـد تصويـر حـوادث جسـيمة مـرَّت بهـم، وقـد أطلقـوا عـلى ذلـك لغـة التَّضـادّ.[٢٦]

ينـوّع الإمـام عليه السلام في اسـتعمال الأسـاليب البلاغيَّـة ضمـن خطبـه، إذ يعمـد إلى اختيـار الأسـلوب المناسـب لـكلِّ فكـرة جزئيَّـة، ليصـل إلى غايتـه في التأثـير الجـماليّ والتفاعـل المطلـوب عنـد السـامع أو القـارئ، وهـذا مـا يتَّضـح لنـا في نـماذج مـن خطبـه التـي تشـتمل عـلى هـذا التنـوّع الأسـلوبيّ.

فقـد ذكـرت المصـادر أنَّ النـاس أتـوا إلى الحسـن بـن عـليّ عليهما السلام بعـد وفـاة أبيـه الإمـام عـليّ عليه السلام ليبايعـوه، فخطـب قائـلاً: **"الحمـد لله عـلى مـا قـضى مـن أمـر، وخـصَّ مـن فضـل، وعـمَّ مـن أمـر، وجلـل مـن عافيـة، حمـداً يتـمُّ بـه علينـا نعمتـه ونسـتوجب بـه رضوانـه، إنَّ الدنيـا دار بـلاء وفتنـة وكلّ مـا فيهـا إلى زوال، وقـد نبأنـا الله عنهـا كيـما نعتـبر، وقَـدَّم إلينـا بالوعيـد كيـلا يكـون لنـا حجَّـة بعـد الإنـذار، فازهـدوا فيـما يفنـى، وارغبـوا فيـما يبقـى، وخافـوا الله في الـسِّرِّ والعلانيـة، إنَّ عليًّـا عليه السلام في المحيـا والممـات والمبعـث، عـاش بقـدر، ومـات بأجـل، وإنِّي أبايعكـم عـلى أن تسـالموا مـن سـالمت وتحاربـوا مـن حاربـت. قـال الـراوي: فبايعـوه عـلى ذلـك. يشـير الإمـام عليه السلام في هـذه الخطبـة إلى صفـات الله سـبحانه وأنَّ أزمـة الأمـور كلِّهـا بيـد الخالـق الـرازق، والمحيـي المميـت. ثُـمَّ عـرج عـلى ذكـر الدنيـا، وأنَّهـا دار فتنـة، ودار قلعـة، وبعـد هـذا وذاك.. أشـار الإمـام إلى أبيـه أمـير المؤمنـين عليه السلام وأنَّـه فـارق الحيـاة بكتـاب وأجـل فليبايـع خلفـه مـن شـاء الهـدى، وتبـصَّر عـن العمـى"**[٢٧].

٢٥ العكيلي، عهود عبد الواحد. "قراءة استنطاقية لتكامل الشخصية من خلال لغة التضاد البلاغية،" ٢٠١٨، https://imamhussain.org/arabic/23002 .

٢٦ البونسي، أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن. كنز الكتاب ومنتخب الآداب، تحقيق. حياة قاره (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠٤)، ٣٤.

٢٧ القرشي، باقر شريف.(الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة (مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ٣٦.

يراعي الإمام ﷺ في هذه الخطبة تسلسلاً معيَّنًا، وبناءً محكماً، يبدأ بحمد الله سبحانه، ثُمَّ يذكر الدنيا والآخرة وما بينهما من فروق، وينعطف إلى ذكر أبيه ﷺ، ويختم بشرطه لقبول البيعة، ومن الملحوظ أنَّ الإمام ﷺ يقرن كلّ فكرة من الأفكار السابقة بالأسلوب البلاغيّ الذي يناسبها، مراعياً مقتضى الحال والسياق في إبلاغ رسالته من هذه الخطبة.

إذ يأتي مفتتح هذه الخطبة بالحمد على عادة أبيه أمير المؤمنين ﷺ، فللَّه الأمر من قبل ومن بعد، وذكرُه سبحانه في مطلع أيِّ كلام دليل على تسليم الأمر له، والاعتراف بفضله، وقد جاء التعبير عن ذلك بجمل متوازية على المستوى التركيبيّ (فعل ماضٍ + جار ومجرور)، ممَّا يُكسب الكلام تناسباً إيقاعيًّا تركيبيًّا يسهم في تعميق الأثر الجماليّ القائم على التوازي بين الجمل: (قضى من أمر، وخصَّ من فضل، وعمَّ من أمر، وجلل من عافية).

ويمكننا أن نلحظ غياب المسند إليه (الفاعل: الله) عن سياق الجمل المتوازية تركيبيًّا، ذلك أن ذكره في المطلع (الحمد لله) يغني عن التكرار، فيكون الحذف البلاغيّ الواقع على المسند إليه مشفوعاً بقرينة لفظيَّة هي (سبق الذكر)، أمَّا الغاية من الحذف فهي (الاحتراز عن العبث)، للعلم به من جهة، ولعدم إطالة الكلام وتكرار اللَّفظ من جهة أخرى، وهكذا يأتي الكلام رشيقاً موجزاً؛ ممَّا يكسبه جماليَّة فنيَّة لا يوفّرها الذكر المكرَّر للمسند إليه المعلوم.

ثُمَّ يأتي فصل الخطاب بالحديث عن الدنيا، تمهيداً لقبول البيعة، وقد بدأ الإمام ﷺ هذا الحديث بأسلوب خبريّ تقريريّ لا يخلو من أدوات التوكيد (إنَّ، قد) التي تنزع نحو تقوية المعنى، وإثبات شرفه ورفعته، فقوله: (إنَّ الدنيا دار بلاء وفتنة وكلّ ما فيها إلى زوال) يزيل تردّد السامع في تصديق هذا الحكم، ويُنزل المتردّد منزلة خالي الذهن في إدراكه لحقيقة هذا الحكم، ومثل ذلك قوله: (وقد نبأنا الله عنها كيما نعتبر، وقدم إلينا بالوعيد كيلا يكون لنا حجَّة بعد الإنذار)، ليؤكِّد إنباء الله لنا على سبيل الاعتبار والاتِّعاظ، فلا يكون لنا حجَّة في الغفلة عن ابتلاء الدنيا وفتنتها.

وينتقل الإمام ﷺ بعد ذلك من الخبر التقريريّ إلى الإنشاء الطلبيّ، بقوله: (فازهدوا فيما يفنى، وارغبوا فيما يبقى، وخافوا الله في السِّرِّ والعلانية)، إذ تخرج أفعال الأمر عن دلالتها

الوضعيَّة (طلب الفعل على وجه الاستعلاء) نحو دلالة جديدة يشفُّ عنها السياق، وهي دلالة النصح والإرشاد، وبذلك تأتي دعوة الإمام إلى الزهد بالدنيا، والرغبة في الآخرة، والخوف من الله سبحانه، مسبوقة بالإخبار عن فتنة الدنيا وبلائها، وفي ذلك مراعاة لسياق المقام، وتفهّم لأحوال المُخاطب.

وقد أدّت المقابلة الطباقيَّة دوراً دلاليًّا معنويًّا في سياق الجمل الطلبيَّة الإنشائيَّة، وعلى الرغم من التضادّ الحاصل بين مكونات طرفي المقابلة، إلَّا أنَّ هذين الطرفين متكاملان في الإحالة على فكرة واحدة، فالزهد بالدنيا الفانية والرغبة بالآخرة الباقية يشكّلان معاً موقفاً ينبغي للمؤمن اتِّباعه، وبذلك تصل المقابلة إلى غايتها في التفاعل الجماليّ على مستوى التركيب، ومثله في التفاعل الدلاليّ على مستوى المعنى، وبائتلاف المستويين تغدو المقابلة أشدُّ تأثيراً في وعي القارئ وفهمه لغاية الموعظة. أمَّا الطباق بين لفظتي (السّرّ، العلانية) فيأخذ دلالة شموليَّة تجمع النقيضين على صعيد واحد في الخوف من الله سبحانه على جميع الأحوال.

ثُمَّ يربط الإمام ﷺ بين حديثه عن الدنيا الفانية، وذكره لأبيه أمير المؤمنين ﷺ، ليبيَّن أنَّ البقاء لله عزَّ وجلَّ، وأنَّ مصير كلِّ حيٍّ عائد إليه سبحانه، وبذلك فهو يصدر في قبول البيعة عن وعي عميق بأنَّ الملك زائل، ولا يبقى إلَّا العمل الصالح والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحقِّ، وهذا ما يستوجب طاعة ولي الأمر طالما أنَّه يعي حدود الله، ويدرك أنَّ الدنيا متاع الغرور، ومن هنا جاء شرطه في نهاية الخطبة لقبول البيعة (وإنِّي أبايعكم على أن تسالموا من سالمت وتحاربوا من حاربت)، وهذا الطباق الضِّدِّيُّ بين السلم والحرب يفضي إلى دلالة الطاعة على جميع الأحوال.

لقد اقتضى مراعاة المقام وسياق الحال من الإمام ﷺ التدرّج في الأحكام، فهو لا يعظهم إلَّا بعد أن يبيّن لهم الأسباب، ثُمَّ لا يقبل بيعتهم له إلَّا بعد استعراض فهمه لحال الدنيا ومآلها، ولا يشترط عليهم الطاعة إلَّا بعد تبيان موجبات تلك الطاعة، وبذلك تصل الخطبة إلى غايتها عبر تسلسل الأفكار، واختيار الأسلوب البلاغيّ المناسب لكلِّ فكرة للوصول إلى الإقناع الذي يريده الإمام ﷺ من مبايعيه.

ومن خطبه ﷺ في التوجيه الإنسانيّ، قوله "**أيُّها الناسُ: إنَّه منْ نصحَ لله وأخذَ قولَهُ دليلُ هدىً للَّتي هي أقومُ، وفّقهُ اللهُ للرَّشادِ، وسدَّدهُ للحسنى، فإنَّ جارَ اللهِ آمنٌ محفوظٌ، وعدوُّهُ خائفٌ مخذولُ، فاحترسوا من اللهِ بكثرةِ الذكرِ. واخشوا الله بالتقوى. وتقربوا إلى اللهِ بالطاعةِ، فإنَّهُ قريبٌ مجيبٌ. لا ينبغي لمنْ عرفَ عظمةَ الله أنْ يتعاظمَ، فإنَّ رفعةَ الذينَ يعلمونَ عظمةَ اللهِ أنْ يتواضعوا، والذينَ يعرفونَ ما جلالُ اللهِ أنْ يتذلَّلوا، وسلامةُ الذينَ يعلمونَ ما قدرةُ اللهِ أنَ يستسلموا لهُ، ولا ينكرونَ أنفسهم بعدَ المعرفةِ، ولا يضلُّنَّ بعدَ الهدى، وهم الذينَ أخبركم حلمُهم عن جهلِهم، وحكمُ منطقِهم عن صمتِهم، وظاهرِهم عن باطنِهم، لا يخالفونَ الحقَّ**"[٢٨].

تظهر جماليَّة هذه الخطبة من خلال الوظائف التعبيريَّة والنفسيَّة والتوجيهيَّة التي تضطلع بها وفق أساليب بلاغيَّة تتغيّر بتغيّر الحال والمقام، ففاعليَّة التغيير اللُّغويّ في الأسلوب البلاغيّ عمليَّة بناء في وجدان المتكلِّم، ومن ثُمَّ في وجدان المتلقّي (المخاطَب)، وهناك مسوّغات وغايات تقتضي استعمال هذا الضرب من البلاغة أو ذاك، أو هذا النمط من الكلام دون غيره.

فقد اعتمد الإمام ﷺ الأساليب الإنشائيَّة في هذه الخطبة لقدرتها على الحثّ وإثارة الذهن وتنشيط العقل وتحريك المُخاطَب، ذلك أنَّ الأسلوب الإنشائيّ يتناسب مع مواضع الخطاب، وإثارة الوجدان وتحريك الضمير، ولذلك يأتي النداء (أيُّها الناس) في مطلع الخطبة للدلالة على طلب الإقبال الذي لا يخلو من التنبيه، وذلك لتخصيص المنادى بالمعاني الواردة بعد النداء، ويتحوّل التخصيص إلى تعميم تبعاً لتوجيه الخطاب إلى الناس عامَّةً.

كما يأتي أسلوب الأمر المتواتر للدلالة على النصح والإرشاد (فاحترسوا من الله بكثرة الذكر. واخشوا الله بالتقوى. وتقرَّبوا إلى الله بالطاعة)، ويقترن هذا النصح بالتعليل السابق واللاحق، إذ يبيّن الإمام ﷺ قبل ذلك أنَّ (جار الله آمن محفوظ، وعدوُّه خائف مخذول)، ويعقب نصحه وإرشاده تأكيده أنَّ الله (قريب مجيب)، وهكذا فإنَّ هذه المعاني الشريفة (الاحتراس من الله بكثرة ذكره، الخشية من الله بالتقوى، التقرّب إلى الله بالطاعة) تجد طريقها إلى سلوك المخاطَب عن طريق النصح والإرشاد، لا عن طريق الاستعلاء والأمر الحقيقيّ، وبذلك تؤدِّي المعاني الثواني دورها الجماليّ والتأثيريّ في إيصال المعنى المراد بطريقة بلاغيَّة

٢٨ الطباطبائي، محمد حسين. ترجمة تفسير الميزان، ترجمة. محمد باقر همداني موسوي (بيروت لبنان: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٣٧٤ هـ)، ٤٥.

إنشائيَّة، ومن الواضح أنَّ إسناد أفعال الأمر إلى ضمير الجماعة يفيد تعميم هذه الدلالة على المخاطبين جميعاً، أكثر من إسنادها إلى المفرد، ففي الإسناد إلى المفرد تخصيص، وإن كان لا يخلو من غاية التعميم تلميحاً في بعض الأحيان.

وعلى مستوى الأسلوب الخبريّ التقريريّ، يراعي الإمام ﷺ حال المخاطَب من دون إغفال غاية إقناعه بمضمون الكلام، فنراه يستعمل الخبر الطلبيّ بإدخال أداة التوكيد (إنَّ) على صدارة بعض الجمل على الرغم من عدم حاجتها إلى التوكيد، كقوله: (فإنَّ جار الله آمن محفوظ)، وقوله (فإنَّه قريب مجيب)، وكأنَّ الإمام ﷺ يريد بهذا السياق الخبريّ الطلبيّ أن يبيِّن قيمة التقوى للناس، فأنزلهم منزلة المتردّد، لأنَّه يُدرك غفلتهم أحياناً عن ذكر الله، إذ يسعون وراء ملذَّات الدنيا، وخاطبهم بأسلوب الخبر الطلبيّ على سبيل التذكير، وهكذا يُلقي الإمام ﷺ كلامه بقدر أهمِّيَّته في نفسه، وتحسّسه لدواعيه، وهذا يدلّ على مرونة الصيغ التوكيديَّة في مواجهة المواقف.

ولا يغيب عنا الدور المهم الذي تؤدّيه الأساليب النحويَّة في سياق الخطبة، كأسلوب الشرط الذي يفعّل المحاكمة المنطقيَّة لدى المتلقّي، وذلك بالربط بين فعل الشرط وجوابه، كقوله ﷺ: (من نصح لله وأخذ قوله دليل هدى للَّتي هي أقوم، وفّقه الله للرَّشاد، وسدَّده للحسنى)، إذ تتواشج معاني الالتزام بحدود الله عزَّ وجلَّ بمعاني الرشاد والسداد والتوفيق من خلال أسلوب الشرط، فيفضي أوَّلها إلى آخرها وفق تسلسل منطقيّ، ويعضِّد ذلك أسلوب العطف بين الأفعال في الشرط وجوابه، على سبيل الاتِّساع في المعنى.

أمَّا أسلوب النفي المكرَّر في أكثر من موضع (لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعاظم، ولا ينكرون أنفسهم بعد المعرفة، ولا يضلُّنَّ بعد الهدى)، فإنَّه يفيد إثبات الأحكام بنفي نقيضها، وهذا أدعى إلى رسوخ المعنى المراد في الذهن، ومثل ذلك أسلوب البناء التركيبيّ المتوازيّ للجمل الأخيرة في الخطبة، فإنَّه يتناسب مع غاية الخطبة من حفظ مضمونها، والعمل به، إذ يؤدِّي الإيقاع التركيبيّ المتَّسق في الطول دوراً جماليًّا في التناسب الذي يلقى أثره لدى السامع أو القارئ، ولا تخلو هذه الجمل الأخيرة من الطباق الذي يجمع الأضداد على سبيل الدلالة الشموليَّة.

الخاتمة:

وبعد، لقد استطاع الإمام ﷺ أن يضفي مسحة جماليَّة على حكمه ومواعظه في أقواله القصيرة وخطبه الطويلة، وذلك من خلال التنويع البلاغيّ الذي يراعي مقتضى الحال وسياق المقام، فقد جاء كلام الإمام واضحاً فصلاً في كلِّ مسألةٍ نطقَ بها، تواشجت الأساليب المستعملة مع المعاني المرادة، فكانت بلاغة التأثير في المتلقّي، وأخذت بيده كي يهتدي إلى سبل الحقّ وطريق الصواب.

ينوّع الإمام ﷺ في استعمال الأساليب البلاغيَّة ضمن خطبه، إذ يعمد إلى اختيار الأسلوب المناسب لكلِّ فكرة جزئيَّة، ليصل إلى غايته في التأثير الجماليّ، فقد اعتمد الإمام ﷺ الأساليب الإنشائيَّة في خطبه لقدرتها على الحثِّ وإثارة الذهن وتنشيط العقل وتحريك المُخاطَب، وإثارة الوجدان وتحريك الضمير؛ فاستعمل أسلوب الأمر المتواتر للدلالة على النُّصح والإرشاد.

أمَّا أسلوب النفي المكرَّر، فإنَّه يفيد إثبات الأحكام بنفي نقيضها، وهذا أدعى إلى رسوخ المعنى المراد في الذهن.

وقد أدّت المقابلة الطباقيَّة دوراً دلاليًّا معنويًّا في سياق الجمل الطلبيَّة الإنشائيَّة، فغدت أشدَّ تأثيراً في وعي القارئ وفهمه لغاية الموعظة.

ويأتي السجع من غير تكلُّف، فيؤدِّي وظيفته الإيقاعيَّة على المستوى الصوتيّ المكرَّر الذي يرسّخ المعنى في الذهن، وهذا ما يتناسب مع ترسيخ معنى الحكمة، ورفدها بأسباب التأثير والفاعليَّة.

المصادر:

القرآن الكريم.
آيت اللهي، سيد مهدي. الإمام الحسن بن علي ﷺ. قم: مؤسسة أنصاريان، د.ت.
إسماعيل، عز الدين. الأسس الجمالية في النقد العربي. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٢.
ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب. ط٣. بيروت - لبنان: دار صادر، ٢٠٠٤.
الأحمد، نهلة. "ما هو النص." مجلة المعرفة، العدد ٤٥١. (٢٠٠١).
البونسي، أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن. كنز الكتاب ومنتخب الآداب. تحقيق حياة قاره. أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠٤.
الترمذي، أبي عيسى. الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي. تحقيق إبراهيم عوض. القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٧٥.
الطباطبائي، محمد حسين. ترجمة تفسير الميزان. ترجمة محمد باقر همداني موسوي. بيروت لبنان: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٣٧٤.
العكيلي، عهود عبد الواحد. "قراءة استنطاقية لتكامل الشخصية من خلال لغة التضاد البلاغية،" ٢٠١٨. https://imamhussain.org/arabic/23002.
الفرخ، أحمد. الإمامان الحسن والحسين. مصر: المكتبة المحمودية، ٢٠٠٥.
القرشي، باقر شريف. الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة. مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦.
المجلسي، محمد باقر. بحار الأنوار. بيروت لبنان: مؤسسة الوفاء، د.ت.
المفيد، محمد بن محمد. الإرشاد. النجف: المطبعة الحيدرية، ١٩٦٢.
تحريشي، محمد. أدوات النص. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠.
ريكو، بول. "النص والتأويل." ترجمة منصف عبدالحق. مجلة العرب والفكر العالمي، العدد٣. (١٩٨٨).
سراج، جبر. مناقب الإمامين الحسن والحسين. القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت.
شرشار، عبدالقادر. تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٦.
عبد البر، أبو عمر يوسف. الاستيعاب في معرفة الأصحاب. تحقيق علي محمد البجاوي. مصر: مكتبة النهضة، د.ت.
عبد الحميد، شاكر. "التفضيل الجمالي – دراسة في سيكولوجية التذوق الفني." سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٦٧ (٢٠٠١)..
عبد النور، جبور. المعجم الأدبي. ط٢. بيروت لبنان: دار العلم للملايين، ١٩٨٤.
علوش، سعيد. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. ط١. بيروت لبنان: الدار البيضاء، ١٩٨٥.